جدلية الأنا والآخر: القدس المملوكية في عيون الرحالة المسيحي فيليكس فابري

الدكتورة. آمال الفطناس
ameltf@yahoo.fr

ملخص

تعد الرحلات من أهم روافد الكتابات التاريخية والتي تسمح بتوفير كم هائل من المعلومات الدقيقة عن مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية من خلال رؤية الرحالة وما عايشوه. وهذا من خلال تفاعلهم الوجداني والنفسي مع الأحداث والأماكن والبلاد التي مروا بها .ولعل أهم هذه الرحلات رحلة ابن بطوطة الشهيرة التي تعتبر نموذجا لنظرية الرحلة وكذا لأهميتها وما كتب عنها والتي ترجمت إلى عدة لغات كالألمانية والإنجليزية والفرنسية 'كونها مصدرا هاما للدراسات حول تاريخ منطقة شمال إفريقيا وجنوب الصحراء .كما نجد في المقابل كتابات لرحالة أوربيين اهتموا بالتاريخ الإسلامي والعربي وتركوا رصيدا قيما من الدراسات والوثائق الأرشيفية التي تؤرخ لها من وجهة نظرهم.

وتندرج هذه الورقة البحثية في هذا الإطار وهي كتابة المستشرقين عن البلاد الإسلامية والمتمثلة في دراسة لكتاب الرحالة المسيحي السويسري فليكس فابري ورحلته إلى بيت المقدس. إذ نحاول تسليط الضوء على موقفه من المسلم المقدسي في العهد المملوكي وطبيعة فن الرحلة وعلاقته بالكتابة التاريخية ثم بعد ذلك التركيز على مسألة التفاعل بين الأنا والآخر في نص رحلة القدس ونقل صورة الآخر على المستوى الديني والثقافي خلال القرن الخامس عشر.

الكلمات المفتاحية: الرحلة –فليكس فابري –بيت المقدس– الأنا والآخر–العهد المملوكي

Abstract

The dialectic of the ego and the other - Mamluk Jerusalem in the eyes of the traveller Felix Fabri. Travel is one of the most important tributaries of historical writing, providing an enormous amount of precise information on various aspects of political, economic, cultural and artistic life through the vision of travellers and what they experienced. Perhaps the most important of these journeys is the famous journey of Ibn Battuta, which is a model for the theory of the journey, as well as for its importance and what has been written about it, which has been translated into several languages such as German, English and French' being an important source for studies on the history of North Africa. The author is a leading scholar of Islamic and Arab history and has left a valuable balance of studies and archival documents that tell the story from their perspective.

This dissertation is set within this framework of Orientalist writing on the Pacific countries, which is represented in a study of the book by the Swiss Christian

traveller Felix Fabri and his journey to Jerusalem. We try to shed light on his position on the Muslim of Jerusalem in the Mamluk period and the nature of the art of travel and its relationship to historical writing and then focus on the question of the interaction between the ego and the other in the text of the journey to Jerusalem and the transfer of the image of the other on a religious and cultural level in the 15th century.

Keywords: The Journey - Felix Fabri - Jerusalem - the ego and the other - Mamluk Era

تعد الرحلة من أهم المصادر التي تبرز لنا التفاعل مع الآخر وتمكننا من التعرف عليه. و قد اهتم العرب بالرحلة منذ الفترة الجاهلية إذ جاء في القرآن الكريم أن قبيلة قريش كانت لها رحلتان– رحلة الشتاء ورحلة الصيف– و هي رحلات تجارية بالأساس. وبعد الإسلام امتدت الفتوح حتى ضمت وادي السند وما وراء النهر شرقا والأندلس غربا، وما بين هذا وذاك من شمال إفريقيا. و بذلك انفتحت أمام العربي و المسلم مجالات واسعة كانت من قبل مغلقة. فتنوعت طبيعة الرحلات وأهدافها، إلى جانب الرحلة للإتجار هناك الرحلة لطلب العلم ثم الرحلة للحج، كما تنوع الرحالون فهناك المحترف و الهاوي. من أهم هؤلاء في القرن الثالث و الرابع هجريا نذكر سليمان السيرافي و ابن فضلان ثم المسعودي و ابن خرداذبه و ابن الفقيه والاصطخري و ابن حوقل كما نذكر أبي الفضل أحمد أبو الريحان البيروني (973–1048) الذي صحب السلطان محمود غزنه في حملته العسكرية إلى الهند و هناك تعلم اللغة السنسكريتية و الهندية و بعض اللهجات الأخرى فكانت نتيجة هذه الرحلة كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة" وكذلك كتابه "الآثار الباقية"[1]. و من أهم رحالة المغرب نذكر ابن جبير و ابن سعيد و العبدري و شيخ الرحالين ابن بطوطة في النصف الأول من القرن الرابع عشر في كتابه "رحلة ابن بطوطة" الذي وصف فيه مناطق بعيدة و شاسعة من العالم المعروف آنذاك متجاوزا ماركو بولو الذي لحقه، من حيث الفضاءات المستكشفة أو الزمن الذي قضاه في أسفاره. قضى ابن بطوطة ثماني و عشرين سنة من حياته يتنقل في أجزاء العالم المعروف، فتحمله أسفاره من طنجة إلى مصر عبر شمال إفريقيا ثم إلى الشام و بعد أن أدى فريضة الحج زار إيران و بلاد العرب و شرق إفريقيا ودخل القرم و حوض الفولقا الأدنى ثم القسطنطينية وعرج شرقا إلى خوارزم و بخارى و كردستان أفغانستان و الهند و الصين و جزر الهند الشرقية و جزر الملديف، و بعد أن عاد إلى بلده عاوده الحنين إلى السفر فزار الأندلس والسودان.[2] وقد حازت رحلة ابن بطوطة على اهتمام المستشرقين فترجموها إلى العديد من اللغات (ألمانية و إنكليزية و فرنسية) و أصبح كتابه اليوم مرجعا مهما في تدريس نظرية الرحلة. كما كان لكتاب، "رحلة التيجاني" للرحالة التونسي التيجاني أثر بالغ في فن الرحلة عموما. لا ننسى أيضا الرحالة المغربي حسن بن الوازن المعروف لدى الغرب بليون الإفريقي، و كان لكتابه "وصف إفريقيا" أثر بالغ في تقديم معلومات نفيسة عن مناطق متعددة من إفريقيا

كانت مجهولة لدى الأوروبيين. وقد ترجم كتابه أيضا إلى العديد من اللغات بداية من 1556 وتم الاقتباس منه بشكل كبير في البحوث التي اهتمت بشمال إفريقيا والدول الواقعة جنوب الصحراء.

نجد في الاتجاه المعاكس اهتماما أيضا من قبل الأوروبيين بالآخر المسلم من خلال كتب الرحلات الأوروبية التي بدأت تهتم بما يقع في المجتمعات الإسلامية بداية من أواخر العصور الوسطى.[3] يعتبر الرحالة ماركو بولو في طليعة الأوروبيين الذين زاروا الشرق وعاشوا في أجزائه فنقل لنا معلومات دقيقة عن مدينة"هرمز" فيصف تجارتها وصناعتها وطعامها وعادات أهاليها.[4]

شهد فن الرحلة تنوعا بتنوع الرحّالة و بالوظيفة التي أنيطت بعهدته. فهناك الرحالة المهاجر والمحارب والسائح و رجل الأعمال و الجاسوس و المغامر و المبشر و الحاج... وضمن هذا النوع الأخير يندرج النص محور هذه الدراسة لفيليكس فابري المسيحي السويسري الذي ولد حوالي سنة 1441 في زوريخ بسويسرا و توفي في" أولم" سنة 1502. دخل إلى دير الدومينيكان حيث تلقى تعليما دينيا فتعرف على الكتابات المقدسة وتفاسيرها. عدا الرحلتين اللّتين قام بهما إلى بيت المقدس ومصر لا نعرف الشيء الكثير عن الرجل. كانت رحلته الأولى أو حجه الأول سنة 1480 وثلاث سنوات بعد رحلته الأولى عاود فيليكس فابري الرجوع إلى بيت المقدس.

مجموعة الملاحظات التي سجلها في رحلتيه ضمنها كتابه " إيفاكاتوريوم الأخ فيليكس فابري " و تعني خواطر أو تأملات الأخ فيليكس فابري"[5]. اعتمدت الكاتبة الإنكليزية هيلدا فرانس مركريت بريسكوت في كتابها "الرحلة إلى بيت المقدس في القرن الخامس عشر" آراء وانطباعات مجموعة من الحجاج من جنسيات مختلفة عن بيت المقدس وسكانه ولكنها اعتمدت بصفة مكثفة كتاب فيليكس فابري. كل من كتابي بريسكوت وفيليكس فابري يمكن تصنيفهما في فن الرحلة وفي أدب الحج الذي يجمع بين غايات تعبدية وتجارب شخصية. ترجم كتاب بريسكوت من الإنكليزية إلى الفرنسية من قبل توما لا بريفين وهو المصدر الذي اعتمدناه لنقل صورة الأنا في مرآة الآخر. تسعى هذه الدراسة لإلقاء الضوء على هذا الكتاب لإبراز صورة المسلم في بيت المقدس المملوكية في القرن الخامس عشر كما صورها و استبطنها الحاج المسيحي فيليكس فابري.

لمحاولة فهم هذه الصورة ارتأينا في مرحلة أولى تحديد الإطار التاريخي للعمل (القدس المملوكية في القرن الخامس عشر ميلادي). ثم عرجنا في مرحلة لاحقة على ضبط الإطار المنهجي الذي يحكم مثل هذه الدراسات وهي طبيعة فن الرحلة وموقعها في البحث التاريخي والحضاري عموما. وسنعتني في المرحلة الثالثة وهي الأساسية بمسألة التفاعل بين الأنا والآخر في نص "رحلة القدس في القرن الخامس عشر" على المستوى الديني والثقافي مبرزين التداخل بين الإيديولوجي والذاتي في نقل صورة الآخر.

يعد الإطار السياسي هاما في فهم منطلقات الرحّالة وغاياته. فكما يقول ميشال فوكو: " السلطة تنتج الواقع وتنتج الحقيقة " كما أن الإطار التاريخي والجغرافي يؤثّر في مجرى الأحداث ويوجّهها توجيها معينا. سنحاول رصد دور هذا الإطار الزمكاني والسياسي في توجيه الكتابة.

أما الإطار الزماني لبحثنا فهو القرن الخامس عشر ميلادي و أما الإطار المكاني فعلى المستوى الداخلي (القدس المملوكية) و على المستوى الخارجي أوروبا عموما. فمن هم المماليك؟

هم مجموعة من الجند المرتزقة من الأتراك والجراكسة استكثر منهم صلاح الدين الأيوبي وأهله من بعده في جيشه على جاري العادة في تلك الأعصر، حتى إذا كثروا استبدوا بشؤون الحكومة وطمعوا في السلطة، فلما ضعف أمر الدولة الأيوبية قبضوا بزمام الأمور وأنشؤوا بمصر دولتين، عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية، حكمت الأولى من سنة 648 إلى سنة 792 سنة والثانية من سنة 784 إلى سنة923 وكانتا تبايعان للخليفة العباسي في بغداد. فلما جاء التتار وفتحوا بغداد سنة 656 هجري وقتلوا الخليفة المعتصم، فر من بقي من بني العباس، والتجؤوا إلى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختار واحدا منهم قلده الخلافة وبايعه، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة.

بذل المماليك جهدا كبيرا في الحفاظ على وحدة بلاد الشام و مصر و صد الغزو المغولي و إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام. ولكنهم شهدوا فترات قوة وضعف فيمكن تبعا لذلك تقسيم العهد المملوكي إلى قسمين عصر القوة والتقدم والحضارة مع المماليك الأوائل (البحرية) وعصر التقهقر والانحطاط مع (البرجية) الذي انتهى بالاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر. ويعتبر غزو تيمور لنك لبلاد الشام في (أواخر القرن الرابع عشر ميلادي) فترة انتقال بين عهدين: من عهد القوة إلى عهد الضعف على كل المستويات. أغلب الملوك الذين أتوا بعد هذه الفترة أهملوا شؤون الشعب كما أهملوا التجارة والزراعة وتسلط الجيش على الشعب، وانتشر الإقطاع وتضاءل عدد السكان وسادت الأمية وعدم وجود المؤلفين الجيدين، فتدهورت أحوال البلاد باستثناء فن العمارة، أضف إلى ذلك الاضطراب السياسي والعسكري المستمر الناتج عن ثورات الحكام ضد السلاطين أو ضد بعضهم البعض وكان الشعب يدفع الثمن فتصادر أملاكه ويثقل كاهله بالضرائب الثقيلة فغرقت البلاد في فوضى مما مهد الطريق أمام العثمانيين لاحتلال بلاد الشام ومصر ووضع حد لحكم المماليك[6]. ظل الخلفاء العباسيين والبيعة لهم حتى فتح السلطان سليم الفاتح العثماني مصر سنة 923 وكان الخليفة آنذاك المتوكل على الله آخر خلفائهم، فبايع السلطان سليم. فانتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين.[7]

فترة المماليك البرجيين إذن وبالتحديد آخر هذه الفترة هي الإطار التاريخي لبحثنا ومن الملاحظ أن الوثائق العائدة إلى هذا العهد الثاني قليلة مقارنة بوثائق العهد الأول.[8] وتخصنا بالتحديد الفترة التي حكم فيها السلطان الأشرف سيف الدين قايت باي من 1468– 1496. و هي تواكب الفترة التي زار فيها فيليكس فابري بيت المقدس سنة 1480 ثم سنة 1483. تعد القدس في تلك الفترة 10.000 ساكن من بينهم

1000 مسيحي و 500 يهودي. كما لوحظ إهمال كبير للفضاءات الدينية المسيحية واليهودية وحتى الإسلامية باستثناء المسجد الأقصى.[9]

أما على المستوى الأوروبي فقد عرفت هذه المنطقة تحولات هامة فبعد الهزيمة النكراء للأوروبيين في الحروب الصليبية لم يبق بلد لاتيني واحد في المشرق منذ 1291 فحرموا بالتالي من قاعدة سياسية و اقتصادية و روحية هامة في المنطقة. إضافة إلى الهزة النفسية الموجعة التي خلفتها سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك وما تحمله من رموز سياسية ودينية. علاوة على حرب المائة عام في فرنسا و ما خلفته من دمار مادي و نفسي.

كماعرف هذا القرن بداية مؤشرات النهضة الأوروبية كاكتشاف الطباعة و اكتشاف القارة الأمريكية من قبل الرحالة كريستوف كولومب. في هذا الخضم من الأحداث على المستوى الداخلي والخارجي يندرج بحثنا. فالمبشر المسيحي فيليكس فابري يكتب وأوروبا تعاني من الوضع المتردي الذي سبق وبيناه خصوصا إذا علمنا أنه جاب مناطق عديدة من أوروبا (فرنسا، روما، فينيس وألمانيا)[10] وهو يكتب عن المسلمين المتغلبين القادرين على الذود عن مقدساتهم والمكتسحين لمناطق متعددة من أوروبا رغم الصعوبات الداخلية التي يعانون منها.

الوضع السياسي والاجتماعي و الديني الذي عاش فيه الرحالة سينعكس حتما على كتاباته. فالصورة التي يعكسها للآخر هي ثمرة تجربة شخصية ولكنها أيضا ثمرة موروث ثقافي و اجتماعي.

و قد اختار جنس الرحلة لينقل لنا انطباعاته عن القدس في نهاية الفترة المملوكية.

بالتأمل في طبيعة الكتابات المنجزة حول الحضارة الإسلامية من قبل الآخر الغربي في الفترة الوسيطة السفلى نجد بأن معظمها تنتمي إلى جنس الرحلة. فقد كان هذا الجنس من الأكثر تداولا بين الكتاب الأوروبيين ولا غرابة فالرحلة باعتبارها شكلا جماليا منفتحا ومستوعبا للأجناس الأخرى وفّر للرحالة الأوروبيين الشكل الأنسب للكتابة حيث يجمع بين الحكاية الشخصية أو السيرة الذاتية والحبكة الروائية والتقرير الصحفي فيصف الوقائع التاريخية والأماكن وكذا أنماط الحياة الاجتماعية والممارسات الدينية فضلا عن سرد المعلومات المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والثروات الطبيعية والحيوانية. فالرحلة بتعبير كريم بجيت: " قبل أن تكون سلسلة من المعلومات المنظمة أو جملة من الانطباعات الشخصية هي نص جمالي مستقل في تراكيبه اللغوية و فريد في بنائه السردي"[11] و بفضل هذا التنوع وهذه الشمولية تمكنت الرحلة الأوروبية من تقديم تصورات عامة لطبيعة المجتمع الإسلامي و اختلافه العميق عن أوروبا. ورغم أن هذه الرحلات تشكو في الكثير من الأحيان من افتقادها للموضوعية الناتجة عن الذاتية الطافحة التي تحفل بها والتي تمثل مسوغا للتشكيك فيها واعتبارها أقرب إلى الرواية منها إلى الوثيقة التاريخية، فهي تتضمن معلومات قيمة وتصورات مختلفة يستطيع الباحث الاستعانة بها لفهم وتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية في مراحل سابقة. فالرحلة رغم الاعتراضات التي سبق ذكرها يبقى موقعها هام في منظومة البحث التاريخي.

ومن المفيد الإشارة بأن الرحلة لم تكن قط قالبا جامدا بل تطورت شكلا و مضمونا. وقد ساهم الشكل المفتوح لجنس الرحلة في هذا التطور فاستوعبت معارف متنوعة. وكل المعارف التي استوعبتها تعكس درجة المعرفة بالآخر تمثيلا وتأويلا وتجليات علاقة الذات الفردية والجماعية بالآخر المختلف. كما يعالج فن الرحلة التقاطع بين التاريخي والثقافي خصوصا في فترة اختل فيها توازن القوى بين غرب مشتت ومنهزم بعد الحروب الصليبية التي دامت زهاء النصف قرن وبين مشرق منتصر رغم معاناته هو الآخر من تصدعات داخلية.

صورة هذا التفاعل بين الأنا والآخر على المستوى الثقافي والديني هي مدار هذا العنصر الثاني من البحث. يقدم لنا فيليكس فابري آراء متناقضة عن سكان بيت المقدس وهي وليدة لقاءات مباشرة مع الأهالي. هناك شكوى واضحة وتذمر كبير من كثرة الإتاوات التي يدفعها الحجاج المسيحيون إلى العرب في كل مرة يودون زيارة فضاء ديني مسيحي، هذا بطبيعة الحال إضافة إلى الإتاوة التي يدفعونها إلى السلطة الرسمية. وفي حالة رفض الحجاج دفع الإتاوة، تقع مناوشات بين الطرفين وفي كثير من الأحيان تقف السلطة الرسمية عاجزة عن حماية الحجاج نظرا لتسلط بعض قطاع الطرق وعنادهم. استفحل هذا الأمر حتى أن الرحالة فيليكس فابري يستغرب كيف أن عربيا سمح لجماعة من الحجيج بزيارة فضاء ديني دون أن يطلب مقابلا يقول: " ويا لهول مفاجأتهم لقد تركهم الحارس العربي يدخلون دون أن يطلب مقابلا".[12]

كما يذكر حاج آخر يدعى سوريان بأن الفرنسيسكان كانوا يتعرضون من وقت لآخر إلى زيارة فجائية من بعض الأعوان المسلمين الذين يقلبون البيت رأسا على عقب ويأخذون كل ما يعجبهم ويبدو أنهم يحبون الأغطية الصوفية التي يصنعها الأساقفة كما أنهم لا يتورعون عن الدخول إلى المطبخ وأخذ اللحم من القدور. إلى جانب هذه الزيارات الرسمية يدخل الرعاع أحيانا عنوة فيسكبون الخمرة على الأرض.[13]

كما تذمر الرحالة مع بعض من مرافقيه من تصرفات بعض الأهالي الذين يرشقونهم بالحجارة ويفسر ذلك بالطبيعة العدائية عند المسلمين.[14] ولكنه يتراجع بعد سطور قليلة، فيكتسي كلامه صبغة موضوعية، فيحمّل المسؤولية في ذلك إلى بعض الحجاج المسيحيين الذين يسرقون التين من الضياع مما يوجب رشقهم بالحجارة أو يمرون بالمقابر الإسلامية وهو من الأمور المحظورة في تلك الفترة.

تتعادل الكفة حين يقدم لنا فيليكس فابري صورة أخرى عن هذا الآخر المسلم الذي يحترم قبور المسيحيين. يبين على لسان كازولا (أسقف ايطالي، زار بيت المقدس في نفس الفترة و فيليكس فابري)[15] كيف أن العرب أولوا عناية للقبور المسيحية و يذكر الحالة الجيدة التي كان عليها قبر الدوق كودفراي و الملك بودوان الأول. ستكون هذه الملاحظة فرصة لتدخل حاج آخر يدعى "لودولف" ليقارن بين عناية المسلمين بقبور المسيحيين وتدنيس المسيحيين لقبور أعدائهم من نفس الديانة في "لامباردي"[16] هذه الملاحظات توحي بموضوعية في نقل صورة الآخر كما تبين البون الشاسع بين ما كان يسود القدس من تسامح ديني

واحترام للآخر رغم اختلافه وبين غرب تعم فيه العدائية والفتن الدينية ولعل هذه الملاحظات التي نقلها هؤلاء الرحالة مكنت الغرب من الاستفادة من تجارب الآخرين للإصلاح والنهوض

يواصل الرحالة وصف العديد من الفضاءات الدينية المسيحية داخل بيت المقدس و في أحوازها و يدل وصفه في غالب الأحيان على عناية من قبل السلطات الإسلامية بهذه الفضاءات أوالسماح بالترخيص للمسيحيين بترميم بعضها كما حصل مع السلطان قائت باي الذي رخص ترميم كنيسة بيت لحم التي حصلت على الخشب لترميم أعمدة سقفها من الجبال الألمانية سنة 1480.[17]

يعرج فيليكس فابري لاحقا على ما كانت تعيشه ألمانيا في القرن الخامس عشر من عنف وعدم تسامح مقارنة بلين العرب و تسامحهم مع المجانين العزل. فبسبب مجنون أسود شبه عار تقريبا توقفت قافلة الحجاج و دخل حراس القافلة من العرب في حوار مع المجنون و هو يهددهم برشقهم بالحجارة إن حاولوا المرور. وبعد مداولات دامت نصف ساعة تقريبا لم يتوصل حراس القافلة إلى حل فرجعت القافلة على أعقابها. يعقب فيليكس فابري على هذه الحادثة قائلا : "الشرقيون بسبب كرههم الغريب للعنف لم يفعلوا شيئا لهذا الفقير العاري الأعزل" و يضيف " لو قطع عزّل دون سلاح الطريق في بلادنا على أبسط النبلاء فسيقتلون بسهم أو بضربة سيف"[18]. يصف فيليكس فابري بأن تجنب العرب لاستعمال العنف أمر غريب. هذه الغرابة متأتية من استشراء العنف في بلده ألمانيا. فاحترام الكائن البشري كان غائبا في تلك الربوع حاضرا في الشرق.[19] فهو القدوة و المحتذى.

تصل موضوعية فيليكس فابري في وصف هذا الآخر المسلم إلى حد تفضيله على المسيحي اليوناني فهو يؤكد بأنه يفضل مسلما ويثق به أكثر من وثوقه بمسيحي شرقي يوناني.[20]

ويؤكد أنه علاوة على علاقات التشنج والعداوة في بعض الأحيان بين المسيحيين والعرب فإنه بإمكانهم التفاهم وحتى ربط صداقة حقيقية فيما بينهم. الفارس النبيل (حسب عبارة فيليكس فابري) أسامة، أحد قادة صلاح الدين في الحروب الصليبية، يجسد المثال الحي لهذه الصداقة التي كانت تربطه مع "فرسان المعبد"، وقد سمح هؤلاء لأسامة بالصلاة في كنيستهم متخذا الكعبة قبلة له.[21] رغم الاختلاف يبقى الحوار مع الآخر وحتى التصادق معه ممكنا. فأن يصلي مسلم في كنيسة وأن يقبل مسيحي بذلك لدليل واضح على درجة عالية من التسامح الديني وعلى إرادة متبادلة في قبول الآخر.

يؤكد مثالا آخر علاقة المودة المتبادلة بين المسلم و المسيحي من خلال مثال الأمير يزبك الفقيه الذي وجد ملجأ آمنا بعد هروبه من سوريا عند راهب جبل سهيون الذي آواه و نشأت بينهما صداقة حميمة. وعندما أصبح يزبك المستشار المقرب من السلطان قائت باي لم ينس صنيع الراهب وأوكل الاعتناء برجال الدين المسيحيين إلى شخص يدعى فخر الدين، يعودون إليه في حالة خطر ألم بهم أو ظلم طرأ عليهم. فتحسنت أحوال رجال الدين المسيحيين كثيرا في ذلك العهد[22].

هذا التسامح يتجلى أيضا من خلال وصف الصداقة الحميمة التي كانت تجمع بين أحد الحجاج المسيحيين الفرنسيين و المملوك محمد. ساعد محمد الفرنسي الذي يحج لأول مرة إلى بيت المقدس فاعتنى به وساعده على التنقل وأنقذ حياته من مؤامرة كانت تحاك ضده مؤكدا على أنه من غير اللائق الغدر بمن تقاسمنا معه الخبز و الملح مضيفا بأن الله قد خلق المسلم مثل المسيحي.[23].

حين تعثر فيليكس فابري وسقط من دابته وهو في طريقه إلى البحر الميت تقدم إليه حاكم بيت لحم بنفسه – ويدعى أحمد – فدعك رجله واعتنى به عناية خاصة مما جعله يقول: " أدعو ربي أن يرأف بهذا العربي الوثني مثلما رأف بي".[24]

يواصل فيليكس فابري التركيز على العلاقات المتميزة التي كانت تجمعه ببعض الكبراء المسلمين فيصف عشاء جمع بين مسيحيين و يهود و مسلمين فيقول :" وتعشينا في أجواء تسودها البهجة مع أننا مختلفون في الأديان و الطبائع"[25] . و لكن هذه العلاقات الجيدة لا تقف عند الكبراء من ساسة و رجال دين بل تنسحب أيضا على عامة الشعب وفي وصف فيليكس فابري لهذه الحادثة خير دليل على ذلك. بينما كان الحجاج المسيحيون يتنزهون حول نافورة "بيت سور" إذ التحق بهم مجموعة من المسلمين في طريقهم إلى غزة نزلوا للشرب من النافورة فقدم لهم المسيحيون الخبز وأعطاهم المسلمون عنبا طيبا. يقول الرحالة: "فأكلنا وشربنا معهم في ذاك المكان حتى غروب الشمس"[26].

وهذا ليس غريبا على الذات العربية الإسلامية التي لم تكتف بما هو متوفر لديها من أشكال ثقافية محلية بل عبرت عن استعداد للتعايش والتفاعل مع الآخر أي مع ثقافات أخرى دون تهميش خصوصياتها. وكما نلاحظ فإن هذا التفاعل مع الآخر لم يبن على إحساس بالتفوق أو إحساس بالنقص بل هو مبني على رغبة في الاستفادة، فالآخر في ثقافة العرب والمسلمين لم يكن قط مزعجا بل كان طرفا مفيدا وفاعلا في إثرائهم الذاتي وإنتاجهم الفكري.

من وصف تسامح هذا المسلم نتدرج إلى الإعجاب ببعض سلوكياته في طقوسه وعباداته وخصوصا في أداء الوضوء فيصف جديتهم في القيام بهذا الفرض، يقول: "يمشي كل بمفرده دون تدافع ولا يتحدثون إلى بعضهم البعض كما لا يصطحبون معهم طفلا ولا كلبا ولا يبصقون في المساجد"[27] ، فالتركيز على هذه السلوكيات في الوضوء تكشف عن إعجاب بها في مرحلة أولى وعن عدم توفرها في المجتمعات الأوروبية في القرن الخامس عشر في مرحلة ثانية فيبقى مرة أخرى هذا الشرق هو القدوة والمحتذى.

كما أعجب فيليكس فابري بكيفية تأدية المسلمين لصلاتهم و خصوصا بجديتهم و انضباطهم جميعا بتأديتها في وقت موحد وبحركات موحدة. ويشبههم في ذلك بالأساقفة المنتمين إلى نفس الطريقة[28]. ربما هذا الانبهار يعود إلى اللحمة التي لاحظها الرحالة بين المسلمين والتي تتجلى من خلال صلاتهم. هذه اللحمة المفتقدة آنذاك عند المسيحيين نظرا لكثرة المذاهب و الطرق و للحروب الدينية في أوروبا آنذاك.

يعرج فيليكس فابري فيما بعد للتحدث عن المساجد فيشيد بنظافتها. يتحدث عن"لدة"[29] و هي المكان الذي استشهد فيه القديس جورج و به آثار كنيسة قديمة بني فوقها جامع. يقول الرحالة بأنه استرق النظر من خلال باب الجامع المفتوح فرأى جنة حقيقية نظرا لجماله و نظافته[30].

ثم يعمم هذه الملاحظة فيقول بأن المسلمين يولون عناية فائقة بدور عبادتهم بتنظيفها وترتيبها يوميا من الداخل والخارج وهي مصقولة ونظيفة لدرجة أنك تحسبها من العجائب التي تستحق التأمل.[31] ثم يقارن هذه العناية بالفضاءات الدينية من قبل المسلمين بالإهمال الكبير للكنائس من قبل المسيحيين ويتجلى المثال واضحا في حالة كنيسة ذات قيمة كبيرة في روما وهي كنيسة القديس جون دو لاتران التي تتكدس الفضلات في ساحتها على حد تعبيره. يضيف: بأن هذه حال كنيسة عريقة فما بالك بالفضاءات الدينية الأخرى الأقل أهمية فهي على حد تعبيره مقرفة ويندد بحالة الإهمال في المباني وفي الأثاث كما يعم الإهمال أردية الكهان والكتب والقبور والمقابر. ثم يعرج على لامبالاة الشعوب الأوروبية بحالة الكنائس فيصف بأنهم يتجولون في الكنيسة كتجوالهم بأحد الخانات دون تعفف و لا خشوع.

هذا الانبهار لا يتوقف عند طريقة الوضوء و الصلاة أو في سلوك المسلمين تجاه فضاءاتهم الدينية بل ينسحب أيضا على الإعجاب بوقار النبلاء المسلمين ورجال الدين و يركز خاصة على هدوئهم وتواضعهم في لباسهم. و يحاول فيليكس فابري أن يعلل ذلك بالتحريم الديني للخمرة التي تذهب العقل و التي في تحريمها اكتساب لذاك الوقار و الهدوء و الهيبة. [32]

لا بد أن نلاحظ بأن الاهتمام بأهل الذمة من الأمور التي أولاها الإسلام أهمية كبرى ذلك أن الإسلام أباح حرية الاعتقاد لأبناء الديانات الأخرى وفي كثير من الأحيان كانت الدولة الإسلامية تتدخل لإقرار السلم بين الأطراف المتخاصمة من أهل الذمة فيما بينهم أو بينهم وبين المسلمين. فكان الخلفاء والسلاطين يصدرون المراسيم بتقليد رجال الدين المسيحيين و اليهود مراكزهم العليا. و كان لأهل الذمة مكانة مرموقة في كثير من الدول الإسلامية. ولكن هذه المعاملة تتغير حسب الظروف ففي حالة المروق والخروج عن المعاهدات الممضاة بين الطرفين تتوتر العلاقة فتجدد عليهم العهود العمرية (نسبة إلى عمر بن الخطاب) فيلزموا بتغيير زيهم بأن يلبسوا عمائم زرقا وجبابا زرقا (بالنسبة للمسيحيين)، ويشدوا الزنار في أوساطهم ويمنعوا من إحداث دير ولا كنيسة ولا صومعة راهب في البلاد الإسلامية، ولا يجددوا ما خرب منها، ولا يؤوون جاسوسا ولا من فيه ريبة على أهل الإسلام، ولا يكتمون غشا للمسلمين ولا يعلمون أولادهم القرآن ...[33]

ولكن هذه المراسيم الصارمة لم تنفذ بحذافيرها في معظم الأحيان و بقيت أغلبها حبرا على ورق كما تحايل أهل الذمة لتجاوزها. ومن ضمن المحرمات التي نجد لها صدى في ملاحظات وانطباعات فيليكس فابري هي تحريم زيارة الفضاءات الدينية الإسلامية على أهل الذمة، وتعد هذه الفضاءات بالنسبة إلى الحاج المسيحي أمكنة خاصة وغير عادية كالأضرحة والمساجد والزوايا والمزارات وكل الأماكن التي لها علاقة

بالمعتقدات والتي يرتبط الدخول إليها بطقوس تمنع على الغرباء فيزيدها ذلك المنع غموضا وغرائبية مما يثير فضول الزوار الأوروبيين. وقد تمكن الرحالة فيليكس فابري من الدخول خلسة إلى المسجد الأقصى عشرة مرات متتاليات نظرا للعطب الموجود في مفتاح باب المسجد مما اضطر الحارس إلى تركه مفتوحا. اغتنم الرحالة هذه الفرصة لوصف المسجد من الداخل وصفا دقيقا مع مقارنته بالكنائس المسيحية. و قد جلب انتباهه الجدران البيضاء العارية من الزينة في المساجد الإسلامية مقارنة باللوحات و التماثيل التي تزين الكنائس المسيحية.[34]

و هنا نلاحظ بأن المقارنة من الثوابت المنهجية في فن الرحلة فعادة ما يضع الرحالة ما يراه على مرايا ثقافته فيقارن ما يراه بما يعيشه في محيطه الثقافي الخاص و قد تكون الغاية بريئة كما يمكن أن تكون محملة بنقد خفي وفق مرجعية مغايرة. كما نلاحظ بأن هذا الوصف الدقيق للفضاءات الدينية فيه رغبة ملحة من قبل الرحالة إلى لفت الانتباه إلى المكان فتارة يصفه ثابتا ماديا من الناحية المعمارية والجمالية وطورا يصفه يعج حركة فيصف المكان ورواده أو إن شئنا كيفية تعامل المسلمين فيما بينهم في الفضاء الديني وكيفية تعاملهم مع الفضاء الديني في حد ذاته. فيصبح الفضاء موجها لسلوكيات المسلم. فينتقل فيليكس فابري في وصف الفضاء الديني من السكون إلى الحركة ومن الحيادية إلى الرمزية الدالة. فهو يرصد المظاهر المتعددة للإسلام بمختلف تجلياتها، و كذا الطريقة التي كيّف بها الإسلام الإيقاع اليومي للحياة.

فالرحالة حين يصف يعرّف في الآن نفسه بالفضاء الديني الإسلامي ويقربه من ذوات المسيحيين فيربطهم بطريقة واعية أو لا واعية بغيرهم ويمكنهم من مادة إثنوغرافية تجعلهم مؤهلين للتواصل مع الآخر.

كما سبق و بينا هناك تركيز من قبل الرحالة على وصف الأماكن و الأشخاص تارة بمعزل عن بعضها وطورا في علاقة تشابك بينهما. و هي علاقة يسودها الانبهار إجمالا. أما فيما يتعلق بجوهر الدين الإسلامي فنجد بعض الملاحظات التي تنم عن عداء للدين وعدوانية تجاه صاحب الرسالة النبي محمد ومقت واحتقار تجاه المسلمين عموما. يقول في هذا السياق:" المسلمون بصفتهم أوفياء لمحمد المرتد والمعادي للمسيحية هم بطبيعة الحال مشوهون بكل أنواع البدع فهم أسوأ من الوثنيين و أبغض من اليهود"[35] ولكن الواجب يحتم على رجل الدين المسيحي دراسة معتقدهم الفاضح فيصف فيليكس فابري المعتقد الإسلامي بقوله: " تتأتى سلطة هذا الدين المقيت و المدنس من المزج بطريقة صورية بين العهدين القديم و الجديد و يحوي بعض الحقائق المختلطة بمادة شديدة السخف.[36] و لكنه يعدل موقفه نسبيا حين يقول: " يبقى المعتقد المحمدي غامضا بانحرافه عن نور المسيح ولكنه يحوي في جانب منه النور إذ يشهد بحقيقة القديسة مريم و يسمي المسيح روح الله و يعني كلمة الله ونفس الله وهي كلمات تدل على احترام و قداسة وخشوع"[37]. لا يمكن أن ننتظر من رجل دين مسيحي موقفا مغايرا فهو في موقع المدافع عن ديانته والقيم التي نشأ عليها.

مرة أخرى مستبطنا لفكرة دونية الدين الإسلامي مقارنة بالمسيحية يحاول فيليكس فابري أن يقنع أحد القضاة بالدخول في المسيحية. يصف القاضي فيقول بأنه تجاوز الثمانين من عمره ويشكو من وجع في الظهر وذلك لم يمنعه من مصاحبة الحجاج المسيحيين من فلسطين إلى مصر. و كل ذلك ليس طمعا في جائزة ولكن حبا لأولئك المسيحيين. ورغم المحاولات العديدة لإدخال هذا القاضي للديانة المسيحية إلا أنه رفض ذلك رفضا قطعيا. يقول فيليكس فابري أنه حمل على غرة إلى إيطاليا وقابل البابا نيكولا الخامس والإمبراطور وقد حاول هذان الأخيران رده عن الإسلام وإدخاله المسيحية دون جدوى. فأعيد إلى "فينيس" محملا بالهدايا وكان مبهورا بكرم المسيحيين وعظمتهم. و قد حاول المبشر والحاج و الرحالة فيليكس فابري بكل ما أوتي من قوة إقناع الرجل المسلم المستقيم الغني بالفضائل لإخراجه من مجاهل الإثم على حد تعبيره ولكنه لم يفلح. يضيف فيليكس فابري أن القاضي يحترم الديانة المسيحية احتراما كبيرا إلا أنه يعتقد:" أن الإنسان بإمكانه النجاة في الديانة التي نشأ عليها إذا حافظ على نقائها"[38]. هذا التسامح الديني وهذا القبول بالآخر وحتى محبته في بعض الأحيان رغم اختلافه يبين أن المجتمع الإسلامي قام على التثاقف وعلى التواصل مع الآخر فهذه الأمثلة تعبر عن لحظة من لحظات التقاطع والتفاعل الحضاري بين الأنا والآخر وهي لحظات أساسية في حياة الشعوب المتمدنة.

إلى هذا الحد أجلينا وجه الرحالة الحاج والمبشر فيليكس فابري سنحاول في هذا الجزء الثاني من العمل اكتشاف وجه الرحالة السائح الذي يتحدث عن المناخ والطبيعة كما تجلب انتباهه عادات الناس وتقاليدهم وأسواقهم وأنشطتهم ومهنهم.

يبدأ فيليكس فابري بوصف الأسواق في بيت المقدس فيصف الفضاء من الناحية المعمارية. يتحدث عن الأسواق قائلا " بأنها عبارة عن طرق طويلة مستقيمة مغطاة بأقبية فيها فتحات صغيرة يدخل منها ضوء ساطع دون أن تزعج المار الشمس أو المطر. وعلى اليمين كما اليسار حيطان منخفضة يمكن للمار أن يجلس عليها ليأخذ نصيبا من الراحة. وكل صناعة تقليدية لها مكان خاص بها، من سوق الأحذية إلى سوق الملابس فسوق المصاغة فالحرير فالقطن فالسكر..".[39]

ثم ينتقل إلى وصف الباعة فيصنفهم إلى قارين وجوالة ومن ضمن الباعة الجوالين يصف الباعة الذين يسمح لهم بالدخول إلى الفضاءات الدينية المسيحية لبيع سلعهم إلى الحجاج المسيحيين فيصف كيف ينضدون فرشهم على الأرض ويعرضون فوقها مختلف السلع من الأحجار الكريمة والأقمشة الدمشقية والحرير...فيكثر البيع والشراء داخل الكنيسة مما يثير حفيظة الرحالة فيليكس فابري الذي يرى بأن في هذه التصرفات عدم احترام لقدسية المكان.[40]

ثم ينتقل إلى وصف السلع المعروضة في الأسواق فيستغرب من بيع المسلمين للأطعمة المطهوة الجاهزة من دجاج مشوي ولحم وبيض وخضر بأسعار في متناول الجميع. ويستثني الخبز الذي يعد في

المنازل وهو في شكل أرغفة مسطحة ولينة تحسبها عجينة من شدة رخاوتها والذي تسبب في عدة حالات سوء هضم لدى عدد لا بأس به من الحجاج المسيحيين حتى أن أحد رجال الدين المسيحيين الباريسيين عدّ أن هذا الخبز هو أحد أهم الأسباب التي تفسر تدهور الحالة الصحية لسكان بيت المقدس. ثم يضيف بأن الطبخ من خاصيات الرجال و يعرج على وصف المطابخ فيقول بأنها مطابخ بلا سقوف.[41]

ثم يعود ثانية إلى وصف الأطعمة فيعرج على الغلال واصفا البطيخ فيقول: البطيخ في بيت المقدس كبير وشديد الحلاوة. ويضيف بأنه مرض هو و بعض الحجاج الألمان بعد أكلهم للبطيخ و يحاول تفسير ذلك بأن بعض الأطعمة و الغلال في بيت المقدس لا تتوافق مع طبائع الحجاج الأوروبيين.[42]

ينتقل فيما بعد إلى وصف العمارة المدنية فيتحدث عن المنازل في بيت المقدس ويستغرب من استعمال الشرقيين للأسقف المسطحة فبعد مغيب الشمس يطلع الرجال بحثا عن القليل من البرودة فهناك يعملون ويأكلون وينامون ويستقبلون الأصدقاء كما ترقص النساء على أنغام الطنبور ويضيف بأن الرجال يكتفون بالنظر دون المشاركة في الرقص.[43] ثم ينتقل إلى وصف كيفية جلوس المسلمين القرفصاء ويقر بأنه جربها وكانت صعبة ثم يضيف بأن في جلستهم الكثير من الوقار.

من كيفية الجلوس ينتقل إلى وصف اللباس ويلاحظ الاختلاف التام بين اللباس الأوروبي واللباس الإسلامي فالرجال يحملون عمامات من القماش الأبيض وثيابا عموما بيضاء تصل إلى أسفل الركبتين ولا يلبسون جوارب بل قفازات وخفاف ينزعونها في منازلهم وعند الدخول إلى المساجد مثل الغربي الذي ينزع قبعته.

أما الحديث عن المرأة و الحريم فهي من المواضيع التي استهوت معظم الرحالة الأوروبيين فخصصوا لها حيزا مهما من كتاباتهم. ولما كان الفضاء الخاص بالنساء من الفضاءات المحرمة على الغرباء، فقد لجأ بعض الرحالة كلما أتيحت لهم الفرصة إلى التسلل إلى السطوح لاختلاس النظر إلى النساء وقد نالت تلك السطوح كما سبق وبينا إعجاب فيليكس فابري وعدد من مرافقيه. يصف الرحالة النساء فيقول: " يلبسن سراويل تصل إلى أسفل الرجل كسراويل البحارة ويغلب على لباسهن اللون الأبيض وأما ما يضعونه فوق رؤوسهن فهو شبيه بالريشة المائلة" ويضيف بأن "فان حرف" قد وصف حجاب المرأة المسلمة قائلا: " أنه مصنوع في الأعلى من خلية بيضاء في شكل صندوق، أما العنق ومؤخرة الرأس فمغطى بقماش أبيض ومن الجانبين يتدلى قماش أبيض شبيه بالمناديل الإيطالية البيضاء والوجه مستور كليا بحجاب أسود... في الحقيقة إنهن يشبهن شياطين خرجوا لتوهم من الجحيم".[44]

نرى في هذه الملاحظة الأخيرة حكم قيمة يتنافى مع موضوعية الوصف ولكن لا بد أن نشير إلى أن "كل كتابة هي فعل لغوي، و الفعل اللغوي في كل أبعاده فعل اجتماعي، ولذلك فإنه فعل إيديولوجي"[45] ذلك لأن اللغة التي تستعمل لإنتاج و صياغة أي عمل أدبي مهما كان نوعه مرتبطة أيضا بالإيديولوجيا.

يواصل فيليكس فابري الحديث عن المرأة المسلمة فيتجاوز الحديث عن الثياب والحجاب ليصف علاقتها بالآخر وهي علاقة تتسم بالانغلاق على الذات إذ لا ترى المرأة المسلمة غريبا و لا يسمح لغريب برؤيتها.

و من ضمن النصائح التي يسديها الرحالة إلى الحجاج المرافقين له بأن لا يمعنوا النظر في وجه امرأة مسلمة إذ قد ينجر عن ذلك عواقب وخيمة.[46] و يلاحظ غيابها من الأماكن العامة ولكن كما سبق وذكرنا يختلس النظر فيصفها ترقص فوق سطوح المنازل كما يشكك في مواطن أخرى في أخلاقها فالنساء في" رملة" على حد تعبيره يغازلن الحجاج المسيحيين الشبان من فوق السطوح و أخريات يثقبن الحائط للنظر خلسة إليهم فيحذر الرحالة مرافقيه من شدة غيرة الرجال المسلمين على نسائهم و يأمرهم بالغض من أنظارهم وبسد الثقوب في الحيطان.[47] و يضيف فيليكس فابري بأن ما يروى عن استحالة التحدث أو رؤية وجه المرأة المسلمة فيه شيء من المبالغة لأنه يؤكد أنه تمكن مع مجموعة من الحجاج في غزة وبالتحديد في الطريق إلى سيناء من الحديث مع فتيات مسلمات وحتى من رؤية وجوههن فيصفهن فيليكس فابري قائلا: " كن أنيقات حسناوات و أيضا محترمات و عفيفات"[48]

هذا الفرق بين ما يروى وبين الواقع ينسحب أيضا على علاقة الرجل المسلم بالخمرة فيتحدث أن المسلمين المتعصبين يصادرون خمرة الحجاج فيكسرون الزجاجات ويسكبون الخمرة على الأرض بينما الأقل تعصبا والأكثر خبثا يفتكون الزجاجات ويشربون الخمرة كما أضاف أن الكثير من قطاع الطرق يسرقون الخمرة ويشربونها إلى حد الثمالة.[49]

من وصف الأطعمة والأسواق مرورا بوصف المرأة ماديا ومعنويا ثم الرجل في لباسه وجلسته وعلاقته بالمرأة وبدينه وبالغرباء عموما ينتقل فيليكس فابري إلى اللغة فيحاول وصفها واكتناه أسرارها وحتى التمكن من بعض مفرداتها لأنه يعلم أنها المدخل الأمثل لمزيد التعمق في شخصية الآخر وثقافته. نجد في كتاب فيليكس فابري بعض الكلمات العربية المكتوبة بالأحرف اللاتينية و لكن كتابته لهذه الكلمات تشكو من أخطاء كثيرة ناتجة عن خطأ في السماع فالقدس يكتبها "قس" أما البراق فيكتبها "البراش"، والله كبير يكتبها " الله شبيس"، و يكتب "روش الله" عوضا عن روح الله...[50]

يحفظ كذلك بعض الحجاج المسيحيين العديد من الكلمات العربية التي يمكن أن تعينهم في سفرهم و يقرون بصعوبة اللغة العربية. يصف الرحالة أيضا طريقة التدريس في المدارس القرآنية فيقول بأن المدارس لا تستقبل إلا الذكور ثم يضيف بأنهم يصيحون كامل اليوم في ضجيج مفزع وهم يجلسون على الأرض في شكل حلقة مرددين نفس الكلمات العديد من المرات حتى أني أتذكر إلى الآن طريقة التجويد والكلمات المرددة. و أعتقد أن الكلمات التي دونها تعني " حي لا حي إلا الله"[51] .

في نهاية هذا المسح عن انطباعات الرحالة الحاج عن بيت المقدس وسكانه، من المهم التنبيه إلى محدودية تجربة الرحالة نظرا لقصرها زمنيا ولبقائه حبيس أماكن ضيقة جغرافيا، الأمر الذي يجعل أحكامه لا تنقل دائما صورة واقعية وحقيقية لما يصفه ومع ذلك لا تخلو من معلومات قيمة. كما تحوي أوصافه شيئا من المبالغة و الاستغراب و التعجب من المكان و صعوبة المغامرة فيه و من الأشخاص و عاداتهم وتقاليدهم كما تكثر أحكام القيمة أو الأحكام المسبقة و رغم ذلك لا نعدم النفس الموضوعي في بعض المواقف كما

بينا سابقا. تبقى إذن مثل هذه الكتابات على درجة كبيرة من الأهمية إذ تتميز بالحرية في الكتابة والوصف والتعليق دون رقابة كما تتيح للقارئ التعرف على تفاصيل الحياة اليومية في القدس التي ربما لا يوليها المؤرخ الكلاسيكي الكثير من الاهتمام بوصفها جوانب عادية من الحياة اليومية. كما أن طبيعة كتابة الرحلة التي لا تلتزم بالضرورة بنفس القيود المنهجية والقواعد العلمية للكتابة التاريخية تمكن الرحالة من تنويع مصادره وتسجيل انطباعاته الذاتية وهي كتابة كما سبق وذكرنا تتداخل فيها السيرة الذاتية مع الأشكال السردية الأخرى العلمية منها والأدبية. فالرحالة أشبه ما يكون بكاميرا متحركة تحمل الكثير من الأحداث والمشاهد، ورغم أن هذه الأحداث تمثل مركز الاهتمام أي البؤرة التي يتمحور حولها مضمون الرحلة إلا أن نقطة انطلاق الرحالة ونقطة رجوعه هي موطنه الأصلي الذي يشكّل رؤيته للأشياء ويوجّه اهتماماته فهو الإطار المرجعي بينما تعد الأماكن التي زارها بمثابة الأطراف. وهنا تطرح إشكالية المركز والهامش أو الأنا والآخر، حيث ينظر دوما إلى هذا الهامش أو الآخر نظرة دونية وربما تحقيريه وهي مسألة إيديولوجية من الدرجة الأولى إذ تروي رواية التفاعل بين الذات والآخر.

هذه الكتابات الأجنبية إذن التي تناولت عقائدنا وعاداتنا وتقاليدنا وثقافتنا عموما بالدرس والتمحيص تتطلب وقفة نقدية بغية مساءلة تاريخنا كما كتبه الآخر لا كما كتبناه لأنفسنا وكذلك مقارنته بما كتبناه.

لا بد من التأكيد في نهاية الأمر على أن الرحالة الحاج فيليكس فابري حاول قدر الإمكان الابتعاد عن تنميط الآخر إلا أنه سقط في بعض المواطن من وصفه لبيت المقدس وسكانها والدين الإسلامي والثقافة الإسلامية عموما في هذا التنميط الإيديولوجي وقد عرضنا عدة أمثلة وحاولنا ربط ذلك بالسياق التاريخي والحضاري العام الذي أنتج فيه هذا الخطاب. يبقى بالرغم من ذلك نص فيليكس فابري هام، وذلك لأننا من خلال آرائه و انطباعاته تمكنا من التعرف على كيفية بناء الثقافات صورتها عن الثقافات الأخرى، فالآراء التي يعبر عنها الرحالة و الصورة التي يعكسها لا تعدو أن تكون في نهاية المطاف إلا ثمرة لتجربته الشخصية و لمحيطه الاجتماعي و موروثه الثقافي و كل هذه العناصر مجتمعة تعبر عن وعي ومعرفة سابقين أي عن مرجعية محددة القواعد واضحة الأركان تعبر عن منظومة متكاملة من القيم الجمالية و الدينية و المعرفية التي يسقطها الرحالة على ما يرى فيصطبغ نصه بوعيه الثقافي العام أي بإيديولوجيته.

المصادر و المراجع باللغات العربية و الأجنبية

- ابن حبيب النيسابوري، العقلاء المجانين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
- إدوارد سعيد ، الثقافة و الإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب ' دار الآداب، بيروت،، 1997.
- حمادة محمد ماهر، الوثائق السياسية و الإدارية للعصر المملوكي 656-922/ 1258-1516 "دراسة ونصوص"، بيروت، الطبعة الثانية، 1983
- زيادة نقولا ، الجغرافية و الرحلات عند العرب، بيروت، 1962

– كريم بجيت ، "الرحلة بين النص و الوثيقة : صورة طاعون سنتي 1798 و 1800 و مخلفاته في رحلة جيمس غري جاكسون" في كنانيش (الديمغرافيا التاريخية في أدب الرحلة) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، رقم 3، صيف–خريف 2001 ، الرباط.

– *الرحلة وصورة الآخر: قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين حول المغرب*، دار الأمان، دون تاريخ.

– كمال أبو ديب ، "الأدب و الإيديولوجيا"، فصول: *مجلة النقد الأدبي*، المجلد الخامس، عدد4، سبتمبر 1985

– لطفي دبيش ، التواصل الحضاري في الثقافة العربية الإسلامية من خلال مدونة الجغرافيين المسالكيين والرحالين العرب و المسلمين، مركز النشر الجامعي، تونس، 2010.

– مجير الدين العليمي ، الأنس الخليل بتاريخ القدس و الخليل، مكتبة دنديس عمان، 1999

Ayalon David, *Le phénomène mamelouk dans l'orient islamique*, PUF, Paris, 1998.

Clot André, *L'Egypte des Mamelouks (1250,1517), l'empire des esclaves*, Perrin, 2009.

Demombynes G ., *La Syrie à l'époque mamelouks*, Paris, 1923.

Eddé Anne –Marie, *Saladin*, Paris, Flammarion, 2008.

Fabri Felix, *Les errances de frère Felix, pelerin en terre sainte, en Arabie et en Egypte (1480-1483*), tome 1 : premier et deuxième traités ; tome 2 : troisième et quatrième traité, texte latin, introduction, traduction et notes. Sous la direction de j. Mayers et N. chareyron , université Paul valéry , pub. Du CERCAM, Montpelier, 2000- 2003.

al-Ghrari Halima, *Al-Birouni (973-1048)* dans *les promoteurs de l'esprit scientifique dans la civilisation islamique*, trad. Haydar al-Yafi, Rabat, 2003.

Laurens Henry, Tolan John victor, Gillesveinstein, *L'Europe et l'Islam, quinze siècles d'histoire*, Odile jacob 2009.

Lebert Marie, *La Jérusalem médiévale*, Kindle 2006.

L'oiseau Julien, *Les Mamelouks (XIII-XVI^{e} siécle), une expérience du pouvoir dans l'islam médiéval*, L'univers historique, 2014.

Marco Polo, *Voyage and Travels*, London, Cassel, 1886.

Peters F.E., *Jerusalem*, Princeton University Press, 1995.

Piola Stephanie, « La mosaïque de Lod, un chef d'œuvre en voyage » dans *Archéologia*, numéro 513, septembre 2013.

Prescott Hilda France Margaret., *Le voyage de Jérusalem au XV^{ème} siècle*, Arthaud, 1959

1 Halima al-Ghrari, Al-Birouni (973-1048) dans les promoteurs de l'esprit scientifique dans la civilisation islamique, trad. Haydar al_Yafi, Rabat, 2003.

نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، بيروت، 1962، ص. 2.187

3 Marco Polo, Voyage and Travels, London, Cassel, 1886, p. 47.

4 نقولا زيادة، الجغرافيا و الرحلات عند العرب، ص. 239. أنظر

5 Il est utile de préciser que le livre de Felix Fabri était traduit plusieurs fois mais la seule édition complète de ce récit est la veille édition donné au 19 émme siècle par K. D.Hassler, *Fratris Felicis Evagatorium in terrae sanctae, Arabie et Egypti*,en 3 tomes, Stuttgart, 1834-1849. Une traduction allemande integrale est sortie en 1998 mais elle n'est pas critique car elle ne vérifie pas les sources de l'auteur. Une partie du livre sur l'Egypte a été traduit également par J. Masson, *Le voyage en Egypte de felix Fabri (1483*) en 3 tomes, Institut français d'archéologie orientales du Caire, 1975. Et la plus récente traduction est celle de Montpelier intitulée : *Les errances de frère Felix, pelerin en terre sainte, en Arabie et en Egypte (1480-*

1483), tome 1 : premier et deuxième traités ; tome 2 : troisième et quatrième traité, texte latin, introduction, traduction et notes. Sous la direction de j. Mayers et N. chareyron , université Paul valéry , pub. Du CERCAM, Montpelier, 2000- 2003.

المزيد المعلومات انظر: محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية و الإدارية للعصر المملوكي 656-922/ 1258-1516 "دراسة و نصوص"، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، ص. 2-6.16

7 لمزيد التعرف على هذه الفترة انظر: مجير الدين العليمي في الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل، أيضا:

: انظر الفصل التمهيدي لمحمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية و الإدارية للعصر المملوكي 656-922/ 1258-1516 "دراسة و نصوص" ، بيروت، الطبعة الثانية، ، 19838

9 G . Demombynes, La syrie à l'époque mamelouks, Paris, 1923, voir également : Loiseau Julien, Les Mamelouks (XIII-XVIe siécle), une expérience du pouvoir dans l'islam médiéval, L'univers historique, 2014

10 H.F.M. Prescott, Le voyage de Jérusalem au XVemme siècle, Arthaud, 1959, P.9-10.

11 كريم بجيت، "الرحلة بين النص و الوثيقة : صورة طاعون سنتي 1798 و 1800 و مخلفاته في رحلة جيمس غري جاكسون" في كنانيش (الديمغرافيا التاريخية في أدب الرحلة) ، منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية، وجدة، رقم 3، صيف-خريف 2001 ص. 66.

12 « là, à leur grande surprise, le gardien sarrasin les laissa entrer sans exiger de droit » نفس المصدر، ص, 166.

13 Prescott, *Le voyage à Jérusalem*…, p. 242.

14 Prescott, *Le voyage de Jérusalem,* p. 213 : « Ils furent malheureusement deux fois victimes de l'habitude hostile qu'avaient les musulmans de jeter des pierres ».

15 Pour plus d'information sur Casola, voir *: Le voyage de Jérusalem,* op.cit. p. 43-44-45.

16 Prescott, *Le voyage de Jérusalem,* op.cit., p. 218, «Casola parle ainsi des « très humbles » tombes du duc Godefroy et du roi Baudoin Ier , préservées par les musulmans avec un soin qui donne à ludolph l'occasion de commenter le comportement tristement opposé des chrétiens qui, en Lombardie, violaient les tombes de leurs ennemis, leurs frères en religion »

17 Prescott, *Le voyage de Jérusalem…,* p. 185.

18 Ibid. P. 234 : « Les Orientaux, avec leur étrange dégout de la violence, ne voulant rien faire contre ce pauvre homme nu et désarmé »

لا بد من الملاحظة أن المجانين في الثقافة العربية الإسلامية كانوا محاطين بهالة من القداسة تعود إلى أسباب أسطورية و حتى دينية فربما لهذا السبب ترك المجنون و عادت القافلة أدراجها.أنظر في هذا الباب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري, 19

20 Prescott, *Le voyage de Jérusalem,* op.cit., p. 237.

21 Ibid. p. 249.

22 Prescott, Le voyage de Jérusalem…, p. 243.

23 Prescott, Le voyage de Jérusalem…, p.252

24 Ibid., p. 252

25 Prescott, Le voyage de Jérusalem…, p.250.

26Ibid., p. 250.

27 Prescott, Le voyage de Jérusalem…, p. 240

28 Ibid., p. 239 : « s'agenouiller dévotieusement et prier très sérieusement …Tous priaient en même temps et de la même façon, exactement comme s'ils avaient été tous des moines de la même règle »

29 « lydda en Gréco-latin, Lod en hébreu et al-lod en arabe, c'est une ville du district centre d'Israël, c'est l'une des plus anciennes villes du pays », Stéphanie Piola, « La mosaique de Lod », dans Archéologia, numéro 513, septembre 2013, P. 5
30 Prescott, Le voyage de Jérusalem, p. 240 : « c'était un vrai paradis par sa propreté er sa beauté »
31 Prescott, *Le voyage de Jérusalem*…, p. 240
32 Prescott, Le voyage de Jérusalem, p. 241 il dit grâce à l'interdiction du vin les fidèles du prophète sont : « extérieurement fort sobres et calmes, tranquilles indulgents, portés à la paix entre eux, patients…et vêtus avec discrétions… »
محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية و الإدارية للعصر المملوكي 656- 922\ 1258- 1516، ص.59- 6033
34 Prescott, *Le voyage de Jérusalem*…,. P.162-163.
35 Ibid., p. 237.
36Op.cit., p. 238.
37 Op.cit., pp. 238-239.
38 Prescott, *Le voyage de Jérusaleme.., p. 253 : «* tout homme peut être sauvé dans la foi dans laquelle il est né, s'il la garde pure »
39 Prescott, *Le voyage de Jérusaleme*…, p. 226.
40 Ibid., p.
41 Prescott*, Le voyage de Jérusaleme…,* p. 230.

42 Ibid., p. 260.
43 Ibid., p. 231.
44 Prescott*, Le voyage de Jérusaleme…*, p. 232.
كمال أبو ديب، "الأدب و الإيديولوجيا"، فصول: مجلة النقد الأدبي، المجلد الخامس، عدد4، سبتمبر 1985.45
46 Prescott*, Le voyage de Jérusaleme…*, p. 245.
47 Ibid., p. 246
48 Ibid., p. 251.
49 Ibid., p. 246-247.
50 Ibid., p.234-235.
51 Ibid., p. 233. « Ha y la halyl la lach »